# قضية مغلقة

**بقلم.. أمنية مصطفى أحمد / مصر**

« ولأن قضاياهن مغلقة قبل أن تفتح، وجب علينا فتحها»

قضية مغلقة

- صعيد مصر، ١/٢١/ ٢٠١٤-

إنها تقف زهائها -ابنتها- أمام منزلهم ولجج الدموع تربت على صدغ الابنة، أو ربما تواسي ودق عانقت السماء وقت الفجر به، بينما طفلة بتلات زهرتها ما لبثت أن رحبت بربيعها الخامس عشر، وها هي تجافيها الحياة برحيلها من وطنها الصغير-بيتها- أشبه هو بالهرب بعيدا عن كونه وداعٌ مثخن بكدمات الوجوم، وانفلات أعصاب من كشف ما هي مقدمةٌ على فعله...

«سارعي إلى محطة القطار، استقلي قطار الخامسة فجرا، لا تبقِ هنا ثانيةً واحدة و إلا قتلك أبوكِ، لو حدث لي شيءٌ لا تسمحي لنفسك أن تباع خوفا من الموت، موتي ولا تتزوجي ذلك الخَرِف أو حتى غيره، اهربي يا مريم»

كانت أصداء آخر كلمات الأم لمريم رنانة، ليس فقط في أذن الابنة التي ذُبحت مهجتها حين أبصرت أباها الباغي تسارع قدماه الريح نحو أمها، وأوصاله مجرمة تعينه على حمل بندقيته التي كتبها لبث أن أستأصل بها روح الأم الطاهرة... الروح التي خانته، وأعانت ابنته على العصيان.

وقبل أن ترى أمها تعانق الأرض بدمائها هربت... كما أمرت أن تفعل، أن تهرب منهم جميعا، ألا تكون مثلها وتضحي في موضع غير موضع التضخية، أن تنعتق من جسدها إن وجب عليها حتى لا تتزوج وهي طفلة ما لبثت أن غادرت مهدها... وأن تغير مسار سيناريو أملت أمها أن ينحرف بعيدا عن طريق الموت منذ الصغر، موت المهج داخل أجساد تعافر لتبقى رغم الأرواح الأبية ضد البقاء .

*******

تلاشت ساعات رحلتها الأربع في بكاء أزلي، هي نفسها لا علم لها على ماذا ترقرقت العبرات على وجنتيها هكذا، ألأنها هاربة وهي طفلة بلا سند؟ أم أنها تتجنب التفكير في روح أمها التي دالت تحت قدميها بينما تدير ظهرها نحو الرحيل؟ ربما تواسي مهجتها المرعوبة من مغبة ووقع ما أقدمت عليه، لكنها واثقة من العهد الذي قطعته ورسخ في فؤادها.

حتى حين قابلها ابن خالتها الأكبر في محطة رمسيس بالقاهرة، يقودها إلى عش خالتها الصغير، مأواها الجديد من مخالب مدعي القرابة كانت واجمة، معلِقة مقلتيها بالعدم، وحين شرع يسألها عن خالته نبيلة - أمها- وعن أحوالها رضخت قواها للسقوط بين يديه فاقدة لما تركته لها الحياة من وعي.

حركت أهدابها في انتشاءٍ، إحساس بحركة حولها لم ينقطع منذ خمسِ قائق، لكنها راضخة للضعف تحاول البقاء في عيائها، وألا تفيق، سبات سرمدي هو ما تتمناه.

صدحت خالتها بصوت جهوري جوارها:

«استيقظت...استيقظت»

رنت لها في وجوم وورع، لم يمر الكثير حتى طفق جمع عائلة خالتها يتدفق إلى الغرفة وفضول يتغلغل في ثناياهم عن أحوالها غير المطمئنة.

عبراتها تتشبث بأهدابها ورجاءٌ معلقٌ في مقلتيها لخالتها أن تبقى معها وحدها.

تلاشى الجمع وبقيا وحدهما، لم تنكر فاطمة قلقها، ووجيب قلبها الذي كاد يقتلعه من موضعه، ابنة أختها في حال يرثى لها وأختها الصغيرة لا أخبار عنها منذ الأمس لتشفي غليلها... ألا يجب أن يموج قلبها كمراجل تغلي؟!

أخرجت مريم دفتر قديم اختبأ طوال رحلتها في ثنايا حقيبتها، مدته بأوصال مهزوزة نحو فاطمة وعبرة حارة انزلقت على وجنة خالتها.

عانقت فاطمة دفتر أختها الذي أوقعها في براثن ذكريات أليمة، فتحته وسيلٌ جارف من قتاد يجرها نحوها تلك الذكرى حين كشفت أمر دفتر نبيلة منذ سنوات، وأبقت اكتشافها سرا حتى يومنا هذا.

******

-١٩٩٩\٥\١-

«عزيزي لا أحد

اسمي نبيلة، واليوم أنهيتُ آخر يومٍ لي في المدرسةِ الإعدادية، وآخر يوم دراسي في حياتي، هناك حديث يدور حول زواجي القريب، مثيرٌ للسخريةِ حقًا أني لا أعرف حتى اسم ذلك الزوج المستقبلي، أراك قريبًا»

*****

-١٩٩٩/٥/٥-

«عزيزي لا أحد

أصبحتُ خالة، وأختي فاطمة التي تكبرني بعام غدت أم... لا يغمرني الفرح، ولم تنبلج سريرتي حبورًا، أتمنى ألا أكون كفاطمة، أمٌ صغيرة.»

*****

-١٩٩٩/٥/١٠-

«اليوم أخبرتُ أمي بما أضمرتُ داخلي من تمرد، أريد أن أُكمل تعليمي، لا أرغب في الزواج.»

*****

-١٩٩٩/٥/١٢-

«عزيزي لا أحد،

ضربني أبي اليوم، أخبرته أمي برغبتي، علمتُ أن ما فعلت هو قلة تربية، و عصيان و ربما عقوق والدين، عزيزي لا أحد، أنا متعبةٌ حد الموت»

*****

-١٩٩٩/٥/١٥-

«عزيزي لا أحد

أتدري لم أكتب لشخص خيالي مثلك؟

لإن البوح محرم علينا، حتى وإن كان لأنفسنا»

*****

-١٩٩٩/٥/٢٠-

«عزيزي لا أحد

منذُ خمسةِ أيام كانت خطبتي، كنت أود كسر إصبعي حتى لا أرتدي خاتم الخطبة، أبي كان سيكشف الأمر حينها لذا تراجعت، غدا ليلة الحنة، ولا أظنني سألقاك قريبا»

*****

-١٩٩٩/٥/٢٢-

«عزيزي لا أحد

اليوم زفافي، رأيت الشخص الذي سيتزوجني أخيرا، ليت عيني لم تبصره يومًا، إنه عجوز في الأربعين، مخيف، جفلت جوارحي حين رأيته، اسمه متولي، لن أكتب لك ثانية بعد اليوم، سأدثر هذا الدفتر في مكان مبهم، لربما أحتاج لإفراغ ما بجعبتي لك يومًا، أو لربما تُفتح قضيتي المغلقة منذ الأزل، وداعا يا أنيسي»

******

-٢٠١٤/١/٢٠-

«عزيزي لا أحد

رزقني الله بابنة، أسميتها مريم آملةً أن تتجرع من الطهارة القليل، صارت اليوم في الخامسة عشر، زوجي يود أن يزوجها، وأنا لن أسمح له مهما حدث، سأجعلها تهرب اليوم، قد أموت يا لا أحد، لا يهم حقا المهم ألا أدعها تغلق قضية طفولتها بيدها مجبرةً، سأفتحها لها وأدعها تسلك الدرب وحدها، أرجو ألا تفتقد صفحاتك حبرَ قلمي، وداعا بصدقٍ، وإلى الأبد»

******

أطبقت فاطمة دفتر أختها المهترئ وعبراتها أغدقته في حين غرة، تعانق جفناها بتعب مضنٍ، وكوابيس تتعارك في رأسها حول مغبة أختها بعد ما فعلت مع ابنتها، وفي هنيهة قررت قطعَ الشك باليقين، التفتت نحو مريم المستلقية بعيائها على السرير وطفقت تسألها بذعر المستغيث:

«ماذا حل بنبيلة يا مريم؟»

بغشاء من دموع حجب رؤيتها ودون إدراكٍ أجابت الفتاة:

«قتلها أبي أمامي»

هنا صار المبهمُ واضح كشمسٍ أحرقت الجبين، كل الاتصالات على بيت أختها بلا رد، وكل الردود التي أكدت غيابها غير المبرر من منزلها، أصبح جليا كم أن القضايا المغلقة تفتحُ نفسها بمهج الأطهار دوما.

*******

طرقاتٌ متسارعة على الباب، وجمع من الجنود وضابط يقودهم في أهبةِ الاستعداد لأي مواجهة مع فاتح الباب، فك متولي قفل الباب، وتعلقت صدمة جلية بمحياه حين أبصرت مقلتاه الضابط القابع أمامه.

«سيد متولي، أنت متهم بقتل زوجتك السيدة نبيلة وتهديد ابنتك بالقتل مقابل قبولها الزواج»

بادر الضابط حديثا في حين التفت أيادي الجنود تلقي بالقبض على ذلك المجرم الذي باءت محاولته فشلا في إغلاق قضية طفلته مريم بدماء زوجته البريئة.

قضية مريم فتحت نفسها بصخب البوح وضجيج النسيان، فُتحت بدماء تجرعتها الأرض، وأزهقت بها مهجة من تمنت أن تكون في موضع فرار ابنتها يوم تزوجت متولي، لكن ألا يمكن لهن فتح قضاياهن الخاصة بهدوء وإلى الأبد....؟!

ولأن قضاياهن دوما مغلقة وجب علينا فتحها...